الخيانة في مملكة السرِّ

شلومو بيلد، إيلان ديامنت
الخيانة في مملكة السرِّ: رحلة إلى نفوس جواسيس خانوا دولهم
"تل أبيب": دار مطر، 2024
347 صفحة (بالعبرية)

قراءة: ياسر مناع، فلسطين

مدخل

تحتل الخيانة موقعاً مركزياً في تاريخ أجهزة الاستخبارات والدول، لكونها تمسُّ جوهر العلاقة بين الفرد والمؤسسة التي وثقت به ومنحته حق الوصول إلى أسرارها. وقد جنحت أغلب الكتابات التي تناولت هذه الظاهرة إلى مقاربتها من زاوية أمنية وأخلاقية بحتة، فانشغلت بطبيعة المعلومات المسرَّبة وحجم الضرر الذي لحق بالدولة، فيما مالت كتابات أخرى، بفعل الطابع السرِّي الذي يكتنف قضايا التجسس، إلى صياغتها في قالب حكايات مثيرة عن التجنيد والملاحقة ولحظة الانكشاف. بيد أن هذه المقاربات تبقى قاصرة عن تفسير التحول الداخلي الذي يسبق الفعل نفسه، وعن الإجابة عن الكيفية التي يتمكَّن بها شخص من الاحتفاظ بموقعه داخل مؤسسته وأداء واجباته اليومية، بينما ينقل في الوقت ذاته أسرارها إلى خصمها.

المؤلِّفان

لا يمنحنا الكتاب سيرة ذاتية متكاملة لمؤلفَيه، شلومو بيلد وإيلان ديامنت، وإنما يترك لنا الصفحات التمهيدية والحوار الأخير الذي يُختتم به العمل كي نستشف من خلالهما، دون تصريح مباشر، ملامح الخبرة والمسار المهني الطويل اللذين أخرجا هذا التأليف المشترك إلى الوجود بعد سنوات من التفاعل بين صاحبيه.

يمثِّل بيلد الوجه الأمني والاستخباري في هذا التأليف بحكم تكوينه المهني وتجربته الميدانية الممتدة، إذ يروي في مقدمته أن بداياته انطلقت من دورة تأهيل عملياتية خضع لها في جهاز الأمن العام "الإسرائيلي (الشاباك)"، حيث أمضى سنوات خدمته منغمساً في العمل الميداني المباشر الذي أتاح له الاحتكاك اليومي بتفاصيل هذا العالم السرِّي. ومن هذه التجربة العملية المتراكمة عبر سنوات طويلة، تولَّد اهتمامه العميق بتتبُّع لغز الخيانة، وتحديداً بالأشخاص الذين يبادرون طوعاً إلى عرض خدماتهم على دول أجنبية دون أن يكونوا قد استُدرجوا إليها

ابتداءً، وبالإشارات الخفية النفسية والسلوكية التي كثيراً ما تسبق وربما تُنذر، في لحظة انزلاق الفرد التدريجي من موقع الثقة الذي مُنحه إلى موقع الخيانة الذي انتهى إليه. يتضح هذا جلياً في عناية بيلد الدقيقة بآليات التجنيد وثغرات الحماية ومواطن الضعف المتسربة عبر الزمن داخل جدران المؤسسات السرِّية، إضافة إلى الأثر الفادح الذي يخلِّفه الجاسوس الواحد في جسد الدولة التي وثقت به يوماً ومنحته مفاتيح أسرارها. وفي المقابل، يشغل ديامنت داخل هذا المشروع موقعاً مغايراً تماماً لموقع شريكه، فهو من يتصدَّر في الحوار الختامي النقاش الدائر حول سمات الشخصية والدوافع الظاهرة والمستترة على حدٍّ سواء، وحول الآلية المعقدة التي يعيد بها الجاسوس صياغة أفعاله في روايته الذاتية بحيث يحافظ، على الرغم من فعلته، على صورة إيجابية عن ذاته لا تتصدَّع أمام نفسه وإن تصدَّعت أمام الآخرين.

هذا، وينظر ديامنت إلى الخيانة بوصفها سلوكاً ينضج ببطء شديد داخل سيرة فردية بالغة التعقيد تتشابك فيها خيوط الطفولة والعلاقات العائلية المبكِّرة والحاجة الملحَّة إلى الاعتراف جنباً إلى جنب مع أزمات الهوية والمواقف الأيديولوجية المتراكمة عبر السنين. ولهذا السبب بالتحديد، لا يكتفي ديامنت في تحليله بتسجيل الدافع المُعلن الذي يرفعه الجاسوس شعاراً أمام نفسه وأمام الآخرين، وإنما يغوص أبعد من ذلك بكثير بحثاً عن الوظيفة النفسية الخفية التي يؤدِّيها هذا الدافع المعلن في شخصية صاحبه.

تكشف مقدمة الكتاب أن الشراكة بين بيلد وديامنت تشكَّلت قبل سنوات من مشروع التأليف، حين عملا معاً خلال الخدمة الفعلية، ثم تحولت خبرتهما المشتركة إلى صيغة بحثية تجمع منظورين متمايزين، وهما: منظور أمني يقرأ الخيانة من زاوية المؤسسة المعنية بكشفها ومنعها، ومنظور نفسي يتتبَّع البنية الداخلية والدوافع الشخصية لمن يرتكبها. ويعتمد المؤلِّفان في بناء الحالات على السير الذاتية والمقابلات والوثائق والمصادر الصحافية، ثم يخضعان هذه المادة لتحليل نفسي يستند إلى منهج السيرة النفسية أو "السيكوبيوغرافيا" وإلى تقييم الشخصية عن بُعد في الحالات التي لم يلتقيا أصحابها مباشرة.

وصف الكتاب

صدر كتاب **الخيانة في مملكة السرّ، رحلة إلى نفوس جواسيس خانوا دولتهم** لشلومو بيلد وإيلان ديامنت عن دار مطر "الإسرائيلية" في سنة 2024، يضم مواد تمهيدية وخمسة أقسام موضوعية تتوزَّع على ستة عشر فصلاً، ويعقبها حوار ختامي بين المؤلِّفَين، وملاحظات ببليوغرافية، وفهرس عام.

يتناول الكتاب عدداً من أبرز قضايا التجسس والخيانة في القرن العشرين وبدايات القرن الحادي والعشرين، من بينها جوناثان بولارد، وآنا مونتيس، وماركوس كلينغبرغ، وكلاوس فوكس، وكيم فيلبي، وألدريتش إيمز، وروبرت هانسن، ومردخاي فعنونو، وإدوارد سنودن. ولا ينظم المؤلِّفان هذه الحالات وفق تسلسل زمني أو جغرافي، وإنما يصنِّفانها ضمن خمسة أنماط تفسيرية، هي: التماهي مع المعتدي، والوعي بالفعل، والانحرافات الاجتماعية، والأيديولوجيا الظاهرة لدى جواسيس الحرب الباردة، والاحتجاج المرتبط بحق الجمهور في المعرفة.

منهجياً، يجمع الكتاب بين إعادة بناء القضية تاريخياً وتحليل السيرة النفسية لصاحبها. ويتتبَّع المؤلِّفان الطفولة والبنية العائلية والتنشئة الاجتماعية والمسار المهني وأزمات الهوية وظروف التجنيد والعمل السري والانكشاف... بحثاً عن المسار الذي جعل الخيانة ممكنة في وعي الفرد. ويعتمد المؤلِّفان على السيرة النفسية وتقييم الشخصية عن بُعد مستندَين إلى الوثائق والمقابلات والسير الذاتية والدراسات والتغطيات الصحافية. ومن هذا المنظور، لا يفسران الخيانة بالمال أو العقيدة السياسية وحدهما، وإنما يدرسان الحاجة إلى الاعتراف والشعور بالإهانة والرغبة في الانتقام والبحث عن الانتماء والآليات التي يستخدمها الجاسوس لمنح فعله معنى أخلاقياً أو سياسياً يحافظ به على صورته عن ذاته. وتتمثَّل القيمة الأساسية للكتاب في نقله دراسة التجسس من مستوى توصيف الاختراق الأمني إلى تحليل الفاعل الذي أنتجه مع إبقاء حدود التشخيص النفسي عن بُعد موضعاً للنقاش خاصة في الحالات التي لم يخضع أصحابها لفحص مباشر.

الحيِّز النفسي للخيانة

يعرّف المؤلِّفان الخيانة بوصفها فعلاً يهدم علاقة ثقة والتزام بين الفرد والجهة التي تنتظر منه الولاء، سواء كانت شخصاً أو أسرة أو مؤسسة أو دولة. ويحمل وصف الفعل بالخيانة حكماً يصدر عن الطرف الذي يرى أن الفرد نقض التزامه، في حين قد يمنح الفاعل السلوك نفسه معنى مختلفاً، مثل كشف الحقيقة أو مقاومة الظلم أو الالتزام بقضية يراها أسمى. ومن هنا، يميز المؤلِّفان بين التجسس والخيانة: فالتجسس نشاط يتعلَّق بجمع المعلومات السرية أو نقلها، بينما تعبِّر الخيانة عن نقض رابطة الولاء والثقة. وقد يعمل الجاسوس لحساب دولته بدافع وطني، فيُعدُّ مخلِّصاً في نظرها وخائناً في نظر الدولة المستهدَفة، وهو ما يدفع الكاتبين إلى التركيز على تحول علاقة الفرد بدولته أو مؤسسته من الانتماء والثقة إلى القطيعة والعمل ضدّها.

لا يفسر المؤلِّفان الخيانة باعتبارها قراراً عقلانياً منعزلاً يتخذه الفرد في لحظة محددة، وإنما يريانها حصيلة مسار تتفاعل خلاله سمات الشخصية والخبرات السابقة والحاجات النفسية والظروف الاجتماعية والسياسية والفرصة المتاحة. ويستحضران نموذج (MICE)، الذي يضم المال والأيديولوجيا والإكراه والأنا، ويضيفان إليه الانتقام والحاجة إلى القوة والمغامرة والاعتراف. ولا تكفي هذه الدوافع وحدها لتفسير الخيانة، لأن كثيرين يواجهون الإحباط والضائقة والصراع الأيديولوجي دون أن ينتقلوا إلى التجسس. ولذلك، يشير الحيِّز النفسي للخيانة إلى المجال الذي تتقاطع فيه السيرة الشخصية وبنية الشخصية والعلاقات الأسرية والموقع المهني والبيئة الاجتماعية والموقف السياسي والحدث المحفز والتبرير الذاتي. وداخل هذا الحيِّز، يعيد الفرد تفسير فعله بطريقة تسمح له بالحفاظ على صورة أخلاقية إيجابية عن ذاته، حتى وهو يدرك أنه ينتهك الثقة التي مُنحت له.

يعتمد المؤلِّفان في بناء هذا التحليل على السيرة النفسية، أو "السيكوبيوغرافيا" وتقييم الشخصية عن بُعد مستفيدين من السير الذاتية والغيرية والمقابلات والوثائق والدراسات وشهادات الأقارب والزملاء، ويربطان ذلك بالتكوين النفسي للفرد وبالسياق الاجتماعي والسياسي المحيط به. فلا يعزلان الدافع المالي أو الأيديولوجي عن

وظيفته النفسية ولا يقرآن السيرة الفردية خارج المؤسسة والمرحلة التاريخية. وفي الوقت نفسه، يقرُّ المؤلِّفان بحدود هذا المنهج لأن معظم الشخصيات لم تخضع لمقابلات سريرية مباشرة، ولأن المصادر قد تتأثر بتبريرات الجاسوس بعد انكشافه وبرواية المؤسسة التي أدانته وبالمسافة الزمنية واختيارات الباحثَين نفسيهما. ومن هنا، يتم تقديم التحليلات باعتبارها قراءات تفسيرية ليست قطعية للدوافع والعمليات النفسية التي قد تمهد للخيانة.

التماهي مع المعتدي

يستخدم المؤلِّفان مفهوم "التماهي مع المعتدي" لتفسير لجوء الفرد إلى تجاوز شعوره بالعجز أو النقص عبر الاقتراب النفسي من شخصية أو جماعة أو منظومة يراها أكثر قوة وقدرة على الفعل. ولا يفترض هذا المفهوم تبنِّي هوية الخصم بصورة كاملة، وإنما يشير إلى استدخال قيم الطرف الأقوى وصورته وسلطته ضمن تعريف الفرد لذاته بما يمنحه شعوراً بالأمان والانتماء والسيطرة، ويساعده على إعادة تأويل الخيانة بوصفها ولاءً بديلاً.

يظهر هذا النمط بوضوح في حالة جوناثان بولارد[1] الذي يربط المؤلِّفان مساره بشعوره المزمن بالنقص أمام أب ناجح وذي حضور سلطوي، وبميله إلى المبالغة وبناء صورة متخيَّلة عن ذاته. أتاحت علاقة بولارد بـ"إسرائيل" الانتقال في وعيه من موظف محدود المكانة إلى شخص يؤدِّي مهمة ذات قيمة تاريخية ويحمي دولة يراها مهدَّدة وجودياً. وقد غذَّى مشغلو بولارد "الإسرائيليون" حاجته إلى الاعتراف والأهمية، فيما حافظ هو على صورة ذاتية ترى في التجسس تعبيراً عن ولاء قومي وأخلاقي ما ساعده على تحييد معنى الخيانة تجاه المؤسسة الأمريكية التي منحته الثقة.

لكن التماهي يأخذ شكلاً مختلفاً لدى أودي أديب،[2] حيث يتداخل التكوين الأيديولوجي الصارم مع العلاقة بأب نقدي مع الحاجة إلى إثبات الاتساق بين المبادئ والسلوك. لم يرتبط مسار أديب بمنفعة مادية مباشرة، وإنما بالبحث عن موقف أخلاقي وسياسي يراه أكثر نقاءً من الواقع "الإسرائيلي" الذي رفضه. ومع انتقاله نحو جماعة أيديولوجية بديلة، منحها أديب سلطة تحديد الصواب والخطأ، وأصبح العمل مع الخصم في وعيه امتداداً للوفاء بالمبادئ التي تبنَّاها. هذا، ويستعين المؤلِّفان بـ"نظرية التعلُّق" و"دراسات الامتثال الاجتماعي" لفهم هذه القابلية للانقياد إلى سلطة أخلاقية بديلة حيث تداخلت الأيديولوجيا مع الحاجة إلى القبول والانتماء والرغبة في ترك أثر ذي معنى.

أما آنا مونتيس،[3] فيربط المؤلِّفان حالتها بخبرة طفولة اتَّسمت بالخوف والعجز أمام أب عنيف ومسيطر. ووفق قراءتهما، فقد تعلمت مونتيس منذ وقت مبكر إخفاء مشاعرها والفصل بين عالمها الداخلي وسلوكها الظاهر، ثم تحولت السرِّية لاحقاً إلى أداة لإدارة هويتين متوازيتين. حافظت مونتيس علناً على صورة الموظفة المهنية المنضبطة، فيما منحتها علاقتها بكوبا واستخباراتها هوية سرِّية وفَّرت لها الإحساس بالقوة والاستقلال والتميز. كما أتاح لها امتلاك المعلومات والعمل السرِّي الانتقال نفسياً من موقع الخضوع إلى موقع السيطرة مع استمرار الانقسام بين ذاتها العامة وعالمها السرِّي.

توضح الحالات الثلاث أن التماهي مع المعتدي لا يتَّخذ نمطاً واحداً، إذ تجسَّد التماهي لدى بولارد في بناء

صورة بطولية عن الذات، وظهر لدى أديب في شكل انحياز أيديولوجي إلى سلطة بديلة، بينما ارتبط لدى مونتيس بمحاولة نفسية لتجاوز خبرات العجز وفقدان السيطرة. وعلى الرغم من اختلاف السياقات والدوافع، تشترك الحالات الثلاث في إعادة تشكيل الفرد لصورته عن ذاته بالاستناد إلى قوة أو منظومة قيم، يجدها لدى الطرف الآخر، بما يتيح له إعادة تعريف فعل الخيانة داخل وعيه وتحويله إلى سلوك يراه متسقاً مع هويته ومعتقداته.

الواعون

لا تبدأ الخيانة في جميع الحالات من الغواية أو الاستدراج أو البحث عن منفعة شخصية. ففي بعض الحالات يعرف الفاعل منذ البداية طبيعة ما يفعله ويدرك الجهة التي يخدمها والمخاطر التي يتحمَّلها ثم يستمر سنوات وهو يمنح اختياره مبرراً سياسياً وأخلاقياً واضحاً. ومن هذه الزاوية، يقرأ المؤلِّفان حالتَي ماركوس كلينغبرغ[4] وكلاوس إميل فوكس،[5] اللذين يضعانهما ضمن فئة "الواعين"، لأن التجسس لديهما اتَّخذ صورة التزام مستمر ومدروس. ومع ذلك، لا يساوي المؤلِّفان بين الوعي والعقلانية الخالصة، إذ يميزان بين الدافع الذي يستطيع الجاسوس شرحه لنفسه والخبرات والحاجات النفسية التي تمنح هذا الدافع قوته واستمراره. وهكذا، فقد تتحول العقيدة السياسية إلى إطار يربط التجربة الشخصية بقضية أوسع بما يمنح الخسارات الماضية معنى جديداً.

يمثل كلينغبرغ نموذجاً واضحاً لهذا النمط، إذ نشأ في بولندا، وفقد أسرته في المحرقة وخدم في الاتحاد السوفييتي خلال الحرب العالمية الثانية ثم هاجر إلى "إسرائيل" واندفع في مسار علمي قاده إلى مواقع حساسة داخل المعهد "الإسرائيلي" للأبحاث البيولوجية. وعلى الرغم من اندماجه المهني والاجتماعي، فقد نقل معلومات سرِّية إلى الاستخبارات السوفييتية طوال سنوات، وظلَّ يفسِّر هذا السلوك بوصفه وفاءً للدولة التي ارتبطت لديه بهزيمة النازية وبنجاته الشخصية. ومن هنا، يقرأ المؤلِّفان الخيانة لدى كلينغبرغ من خلال هوية الناجي، كون الاتحاد السوفييتي في وعيه جزءاً من السردية التي أعادت إليه الحياة بعد انهيار عالمه الأول.

عاش كلينغبرغ بذلك داخل منظومتين من الولاء، إذ: ارتبط بـ"إسرائيل" من خلال العمل والمكانة والحياة المدنية، فيما ظلَّ يحمل تجاه الاتحاد السوفييتي ديناً تاريخياً ونفسياً أعمق. كان يعرف أنه ينتهك الثقة التي منحتها له المؤسسة "الإسرائيلية"، لكنه أعاد ترتيب واجباته الأخلاقية بحيث منح الوفاء للسوفييت مرتبة أعلى. هذا، وتكتسب عنونة الفصل له بـ"الناجي الأخير" دلالة أساسية، لأنها تكشف موقع تجربة النجاة في تفسير دوافعه. ولا يحول هذا التفسير الأيديولوجيا والامتنان المعلن إلى مجرد غطاء نفسي، إذ يتعامل المؤلِّفان معهما بوصفهما عاملين حقيقيين تشابكا مع تجربة الفقد والنجاة والانتماء.

أما فوكس، فيقدم نموذجاً أكثر وضوحاً من حيث الالتزام الأيديولوجي، إذ لم يتحرك فوكس، وفق ما ورد في الكتاب، بدافع مالي، وإنما انطلق من قناعة شيوعية راسخة ومن اعتقاد أن احتكار الغرب للسلاح النووي سيخلق اختلالاً خطيراً في ميزان القوة العالمي. ولهذا، منح فوكس عمله السرِّي معنى سياسياً يتجاوز موقعه الفردي، ورأى في نقل المعلومات مساهمة في بناء توازن دولي يمنع قوة واحدة من امتلاك تفوُّق مطلق.

يربط المؤلِّفان هذا الالتزام أيضاً بسيرة فوكس الشخصية التي اتَّسمت بالفقد والانقطاع وصعوبة بناء علاقات عاطفية مستقرة. لقد وفَّرت له الشيوعية جماعة واضحة المعالم ونظاماً أخلاقياً يمنحه اليقين والانتماء، فيما أتاح له العمل السرِّي الحفاظ على مساحة داخلية منفصلة عن حياته العلنية. وعندما اعترف لاحقاً، أظهر فوكس إدراكاً للمسؤولية القانونية والأخلاقية عن أفعاله دون أن يتخلَّى تماماً عن المنطق السياسي الذي دفعه إليها. ولذلك، تكشف حالته أن الوعي بالخيانة لا يمنع الفاعل من بناء منظومة أخلاقية بديلة تجعل الفعل مشروعاً في نظره.

يجمع المؤلِّفان الحالتين لأن كلينغبرغ وفوكس عرفا ما يفعلانه، وأدركا طبيعة المعلومات التي ينقلانها، والجهة التي تستفيد منها، واستطاعا الاستمرار سنوات داخل حياة مزدوجة منظمة. وفي الحالتين، امتزج الموقف السياسي بالتجربة النفسية، فتحول التجسُّس إلى فعل يستطيع صاحبه إدراجه داخل صورة متماسكة عن ذاته حتى مع وعيه بأنه ينقض التزاماً قائماً تجاه الدولة أو المؤسسة التي منحته الثقة.

الانحرافات الاجتماعية

يستخدم المؤلِّفان مفهوم "الانحرافات الاجتماعية" لوصف شخصيات لا تضبط سلوكها منظومة مستقرة من الالتزام والثقة والتعاطف، وتميل إلى الكذب والتلاعب واستغلال الآخرين وتجاوز القواعد متى أتاحت لها الظروف منفعة أو إحساساً بالقوة. ولا يفترض الكتاب أن كل من يحمل سمات نرجسية أو معادية للمجتمع سيصبح خائناً، وإنما يرى أن اجتماع هذه السمات مع الوصول إلى الأسرار وضعف الرقابة وشعور الفرد بأنه أذكى من مؤسسته... قد يحوِّل الخلل السلوكي إلى تهديد أمني واسع. وفي هذا الإطار، يوضح فصل "مجرمون في خدمة الأمة" هذه الفكرة من خلال حالات جنَّدتها المؤسسات الأمنية على الرغم من المؤشرات المبكرة على عدم استقرارها. فقد تورَّط أفري إلعاد،[6] المعروف في "قضية لافون"[7] بـ"الرجل الثالث" في تضليل مشغِّليه والتلاعب بالمعلومات والانتقال بين الولاءات، ثم واجه اتهامات بالاتصال بالمخابرات المصرية.

أما فيكتور أوستروفسكي،[8] فيقدم نموذجاً مختلفاً، إذ طرده "الموساد" بعد تعثُّره المهني ثم نشر معلومات عن أساليب الجهاز وعملياته مدفوعاً بمزيج من الغضب والحاجة إلى الاعتراف والرغبة في الانتقام. يستخلص المؤلِّفان من هذه الحالات أن المؤسسة قد تنجذب إلى الجرأة والقدرة على الخداع والمغامرة مع أن السمات نفسها تجعل صاحبها أقل التزاماً بمن جنَّده، وأكثر استعداداً لتبديل ولائه أو استخدام أسرار المؤسسة لمصلحته الشخصية.

وفي السياق نفسه، يقدم ألدريتش ريك إيمز[9] نموذجاً أكثر خطورة للانحراف السلوكي داخل المؤسسة الاستخباراتية. فقد عمل إيمز في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وواجه إخفاقات مهنية وزوجية وديوناً متراكمة قبل أن يتصل بالسوفييت في العام 1985 ويعرض عليهم معلومات سرِّية مقابل المال. وخلال سنوات تجسُّسه، كشف أسماء مصادر أمريكية داخل الاتحاد السوفييتي، ما أدَّى إلى اعتقال عدد منهم وإعدام بعضهم. ويربط المؤلِّفان خيانة إيمز إلى جانب الدافع المالي بنرجسية هشَّة وشعور بالاستحقاق والتفوُّق على المؤسسة مع محدودية واضحة في قدرته على التعاطف مع ضحاياه.

أما روبرت هانسن،[10] فيمثِّل حالة أكثر تعقيداً بسبب التناقض الحاد بين صورته الاجتماعية وحياته السرِّية. فقد عمل في مكتب التحقيقات الفيدرالي الأميركي وسرَّب إلى الاتحاد السوفييتي ثم روسيا، على مدى سنوات، معلومات شديدة الحساسية عن العمليات الأمريكية والمصادر البشرية ووسائل المراقبة، وأسهم موقعه في كشف عملاء عملوا لمصلحة الولايات المتحدة، وانتهى بعضهم إلى الاعتقال والإعدام. وفي حياته العلنية، ظهر هانسن كرجل محافظ شديد التديُّن وارتبط بجماعة "أوبوس داي،"[11] بينما أخفى سلوكيات وعلاقات جنسية سرِّية وتسجيلات وانتهاكات لخصوصية زوجته.

يجمع المؤلِّفان بين حالات في هذا الجزء من الكتاب عبر عنصر مشترك، هو استخدام المؤسسة والناس أدوات لإشباع الحاجة إلى القوة والاعتراف والانتقام مع ضعف الالتزام المتبادل وغياب التعاطف مع نتائج الفعل. ومع ذلك، يبقى تصنيف هذه الشخصيات تحت عنوان الانحرافات الاجتماعية تقديراً تفسيرياً، وذلك لأن المؤلِّفَين يبنيان معظم تشخيصاتهما على السلوك والسِّير والوثائق ولا يستندان إلى فحوص سريرية مباشرة لجميع الحالات.

الأيديولوجيون في الظاهر

يضع المؤلِّفان ستة من جواسيس الحرب الباردة تحت عنوان "الأيديولوجيون في الظاهر"، وذلك لأن الشيوعية أو مناهضة النظام السوفييتي قدمت لكل واحد منهم تفسيراً معلناً لخيانته، بينما تكشف سيرهم عن دوافع نفسية وعلاقات شخصية أكثر تعقيداً. ولا ينكر المؤلِّفان قوة الالتزام السياسي، فالأيديولوجيا منحت هؤلاء لغة أخلاقية تبرر التجسُّس وحدَّدت الطرف الذي اعتبروه جديراً بالولاء، وساعدتهم على تحمُّل حياة مزدوجة امتدت سنوات. لكنهما يرفضان التعامل معها بوصفها تفسيراً مكتفياً بذاته، ويسألان عن الحاجة التي أشبعتها داخل كل شخصية.

في هذا السياق، يظهر كيم فيلبي[12] الذي جنَّدته الاستخبارات السوفييتية خلال دراسته في كامبريدج، ثم تقدم داخل جهاز الاستخبارات البريطاني حتى أصبح من أكثر رجاله ثقة، بينما ظلَّ ينقل أسراره إلى موسكو. يرى الكتاب أن الشيوعية أتاحت له التمرد على طبقته ومجتمعه وأن التجسس منحه شعوراً بالتفوق والقدرة على السيطرة، كما ربطه بصورة الأب القوي والبعيد التي أثَّرت في تكوينه.

أما غاي بورغس،[13] فقد جمع بين القناعة الشيوعية والسلوك المندفع والإفراط في الكحول والحاجة المستمرة إلى الاهتمام، والارتباط النفسي العميق بأمه. وقد وفَّرت له جماعة كامبريدج شبكة انتماء بديلة، بينما أتاح له العمل السرِّي أن يحافظ على مكانته داخل النخبة البريطانية ويعمل في الوقت نفسه على تقويضها. وهكذا تحولت الأيديولوجيا لدى الاثنين إلى إطار جمع التمرد بالانتماء، ومنح الخيانة معنى يتجاوز نقل المعلومات إلى بناء هوية سرِّية يشعر صاحبها بأنه أذكى من المجتمع الذي يعيش داخله.

تظهر محدودية التفسير الأيديولوجي بصورة أوضح في حالتي زئيف أفني[14] ويسرائيل بير،[15] إذ ارتبطت الخيانة لدى كليهما بأزمة هوية وبحث عن مكانة وانتماء. قدَّم أفني نفسه شيوعياً ملتزماً بقضية تاريخية، إلا أن المؤلِّفَين

يربطان مساره أيضاً بعلاقته المضطربة بوالده، وحاجته إلى الاعتراف والقبول، وشعوره بأن المهمة السرِّية تمنحه قيمة يفتقدها في حياته العادية. ومن هذا المنظور، أصبح التجسس لديه ولاءً لسلطة بديلة ووسيلة لإعادة بناء الذات داخل جماعة تمنحه السرَّ والهدف والمكانة.

أما يسرائيل بير، فقد أحاط سيرته بالغموض وقدَّم روايات متناقضة عن أصله وخدمته العسكرية قبل أن يقترب من مراكز القرار الأمني في "إسرائيل" وينقل معلومات إلى السوفييت. ويعرضه الكتاب بوصفه شخصية صاغت هويتها من خلال سيرة مختلقة، واستمدت مكانتها من معرفة عسكرية ادَّعى امتلاكها ومن قربها من أصحاب السلطة.

تكشف الحالات في هذا الجزء، على اختلاف مساراتها، قدرة أصحابها على تحويل الموقف السياسي إلى مبرر أخلاقي للخيانة، واستخدامه غطاءً لدوافع تتصل بالهوية والانتماء والاعتراف والسيطرة. لا ينفي المؤلِّفان حقيقة الدافع الأيديولوجي، لكنهما يريان أنه عمل داخل تكوين نفسي سابق، ومنح الصراع الشخصي لغة سياسية ومشروعاً تاريخياً مكّنا الجاسوس من النظر إلى نفسه بوصفه صاحب رسالة.

حق الجمهور في المعرفة

ينتقل المؤلِّفان في هذا القسم من الخيانة المرتبطة بخدمة دولة أجنبية إلى حالات يبرر أصحابها كشف الأسرار بدعوى خدمة المجتمع وحقه في المعرفة. فمردخاي فعنونو[16] وإدوارد سنودن[17] لم يسلِّما المعلومات إلى جهاز استخباري مقابل المال، وإنما اعتبرا الجمهور صاحب الحق في معرفة ما تخفيه الدولة عنه. ويضع ذلك فعلهما في منطقة خلافية بين الخيانة وكشف المخالفات، إذ ترى المؤسسة في التسريب انتهاكاً للثقة وتهديداً للأمن، بينما يرى المسرِّب أن واجبه تجاه المجتمع قد يتقدَّم على التزامه بالسرِّية عندما تحجب الدولة معلومات تمسُّ الحقوق والمصلحة العامة. ولذلك، لا يحكم الكتاب على الفعل من خلال نيَّة المسرِّب وحدها، وإنما يطرح أسئلة حول من يحدد المصلحة العامة ومدى أحقية الموظف في تمثيل الجمهور وتناسب المعلومات المنشورة مع الهدف المعلن، وما إذا كان قد استنفد الوسائل المؤسسية قبل الكشف. وهنا لا تقوم الخيانة على الولاء لطرف بديل وإنما على صراع بين واجب السرِّية تجاه المؤسسة وواجب أخلاقي يعتقد الفرد أنه يحمله تجاه المجتمع.

يمثِّل فعنونو الحالة "الإسرائيلية" في هذا النقاش، ويربط المؤلِّفان قراره باعتراضه على السياسة النووية "الإسرائيلية" وإيمانه بحق الجمهور في المعرفة إلى جانب مسار شخصي اتَّسم بالعزلة وصعوبة الاندماج والتحولات الدينية والسياسية والشعور بالتهميش. ويعكس استخدام عنوان "نواة العزلة" داخل الفصل، مكانة الوحدة في تفسير مساره، إذ يراها الكتاب جزءاً من تكوينه السابق ودافعاً للبحث عن قضية تمنحه الهوية والمكانة والمعنى. أما سنودن، فيمثِّل نموذجاً أحدث في بيئة رقمية وسَّعت قدرة الدولة على جمع البيانات ومنحت الفرد في المقابل قدرة كبيرة على نسخها وتسريبها. ويرى الكتاب في هذا الأسلوب مؤشراً على سعي سنودن إلى إثارة نقاش عام، ووجهاً يميزه عن الجاسوس الذي يسلم المعلومات سرّاً إلى دولة أخرى. ومع ذلك، يناقش المؤلِّفان تصوُّره لنفسه بوصفه شخصاً اضطر إلى التدخل حين صمت الآخرون. ويربطان ذلك بالحاجة إلى الاستقلال والسيطرة وتقديم

حكمه الشخصي على حكم المؤسسة والقانون. ومن هنا يأتي استخدام عنوان "من ينقذ المنقذ؟" للتساؤل عن الحدِّ الفاصل بين الشجاعة الأخلاقية والاعتقاد بأن الفرد وحده يملك تحديد الصواب. ويخلص المؤلِّفان إلى أن "حق الجمهور في المعرفة" لا ينفي الخيانة ولا يثبتها بذاته، وإنما يتطلَّب تقييم النيَّة، وطبيعة المعلومات وحجم الضرر وطريقة الكشف والبدائل المتاحة لصاحبها.

من تفسير الخيانة إلى الوقاية منها

يعود بيلد وديامنت في الحوار الختامي إلى الفرضية المركزية للكتاب، وهي أن الخيانة لا تنبع من سبب واحد ولا ترتبط بنمط نفسي ثابت. فالمال والأيديولوجيا والإهانة والحاجة إلى الاعتراف والانتقام والمغامرة تكتسب أثرها من خلال سيرة الفرد وعلاقاته وموقعه داخل المؤسسة إلى جانب الفرصة التي تتيح له الوصول إلى الأسرار. ومن هنا، يرفضان بناء صورة نمطية للخائن، فقد شملت الحالات أصحاب قناعات سياسية وشخصيات نرجسية أو معادية للمجتمع، وأفراداً قدَّموا أفعالهم بوصفها احتجاجاً أخلاقياً. ولا يجمع هؤلاء تكوين نفسي واحد، وإنما انتقال الولاء من المؤسسة أو الدولة إلى قضية أو جماعة أو مصلحة ذاتية مع بناء تبرير يسمح للفرد بالحفاظ على صورة إيجابية عن نفسه. كما أن التصنيفات التي يقترحها الكتاب تظل مرنة، لأن الحالة الواحدة قد تجمع بين الدافع الأيديولوجي والحاجة النفسية والمصلحة المادية، وتتغير أهمية كل منها مع الزمن.

هذا، ويظهر اختلاف خلفية المؤلفين في طريقة التعامل مع هذه النتائج. ينطلق بيلد من خبرته الأمنية، فيبحث عن المؤشرات التي كان يمكن للمؤسسة رصدها، وعن أسباب فشل الرقابة وكيفية الاستفادة من المعرفة النفسية في تقليل خطر الاختراق. أما ديامنت، فيحذِّر من تحويل السمات النفسية إلى أدوات لتصنيف الأشخاص بوصفهم خونة محتملين، وذلك لأن النرجسية والعزلة والغضب والحاجة إلى الإثارة تظهر أيضاً لدى أشخاص لا يرتكبون الخيانة. كما يشير إلى أن التحليل النفسي اللاحق يتأثر بمعرفة النتيجة، إذ يُعاد تفسير السيرة والعلاقات والسلوك بعد انكشاف الفعل. ويقرُّ المؤلِّفان كذلك بأن السيرة النفسية والتقييم عن بعد لا يتيحان تشخيصاً قاطعاً، لأنهما يعتمدان غالباً على وثائق وشهادات ومقابلات دون فحص سريري مباشر. لذلك يقدِّمان تفسيراتهما بوصفها فرضيات مرجَّحة، لا أحكاماً نهائية.

لا يرى المؤلِّفان إمكانية التنبؤ بالخيانة بصورة يقينية، فالمؤشر الواحد لا يكفي للحكم، وبعض أخطر الجواسيس حافظوا سنوات على صورة مهنية واجتماعية مستقرة. لذلك، يستبدلان التنبؤ الحتمي بتقدير مستمر للمخاطر يجمع بين فهم الشخصية وملاحظة التغيرات السلوكية والظروف الشخصية وفحص البيئة المؤسسية التي تمنح الفرد القدرة والفرصة للعمل بعيداً عن الرقابة. وبناءً على ذلك، لا تقتصر الوقاية على الفحص الأمني أو النفسي عند التوظيف، وإنما تشمل متابعة التحولات المهنية والمالية والعائلية ومراجعة صلاحيات الوصول إلى المعلومات وتقوية آليات الإبلاغ ومعالجة الإحباطات داخل المؤسسة. ويحذر المؤلِّفان من تحويل الوقاية إلى ملاحقة للسمات النفسية أو المواقف السياسية، لأن ذلك قد يقود إلى اتهامات خاطئة. وتكمن قيمة التحليل

النفسي، وفق هذه المقاربة، في تحسين تقدير المخاطر وفهم اللحظة التي يلتقي فيها الدافع بالقدرة والفرصة، لا في تقديم وسيلة مضمونة لاكتشاف الخائن مسبقاً.

التقييم النقدي للكتاب

تتمثَّل القيمة العلمية لكتاب **الخيانة في مملكة السرِّ** في محاولته بناء مقاربة بينية تجمع الخبرة الاستخبارية بالتحليل النفسي، وتنتقل من السؤال المباشر عن دوافع الجاسوس إلى بحث الطريقة التي يعيد بها الفرد تنظيم ولاءاته وتبرير أفعاله أمام نفسه. غير أن هذا الطموح لا يقابله تأسيس مفاهيمي مماثل في الصرامة، إذ يظلُّ مفهوم الخيانة مرناً وقابلاً للاتساع من دون تعريف إجرائي يحدد عناصره ويفصله بوضوح عن التجسُّس وكشف المخالفات والعصيان السياسي ونقل المعرفة بدافع أخلاقي. وتتيح هذه المرونة جمع حالات متباينة تحت إطار واحد، لكنها تضعف القدرة التحليلية للمفهوم خصوصاً مع انتقال الكتاب بين الحكم القانوني والأخلاقي والنفسي من دون معيار ثابت يفصل بين هذه المستويات.

أما الإشكالية المنهجية الأبرز، فتتمثَّل في الاعتماد على السيرة النفسية وتقييم الشخصية عن بعد. فالمؤلِّفان لا يقدِّمان تشخيصات سريرية، وإنما يعتمدان على الوثائق والسير والمقابلات والشهادات بما تحمله من انتقائية ومواقف ذاتية. ومع ذلك، تُقرأ العلاقات العائلية والعزلة والإحباط المهني والحاجة إلى الاعتراف أحياناً بوصفها مفاتيح لتفسير الخيانة دون أدلة كافية تثبت علاقتها السببية بالفعل. وتبرز هنا مشكلة الاستدلال بأثر رجعي، إذ قد تدفع معرفة النتيجة الباحث إلى إعادة ترتيب الماضي بحيث تبدو بعض الوقائع مقدمات منطقية لها مع أنها ربما لم تكن تحمل الدلالة نفسها قبل انكشاف الخيانة.

ويزداد هذا القصور مع غياب المقارنة بأشخاص امتلكوا السمات نفسها أو مروا بظروف مشابهة دون أن يصبحوا جواسيس. فالإهانة والديون والاضطراب العائلي والقناعة الأيديولوجية والنرجسية ظواهر أوسع بكثير من الخيانة، ولذلك لا يكفي وجودها لدى شخص قد خان لكي تصبح تفسيراً كافياً لسلوكه. ويقر المؤلِّفان نفساهما بعدم وجود نموذج نفسي موحد للخائن، وبأن السمات التي يرصدانها تظهر أيضاً لدى أشخاص لا يرتكبون الخيانة، وهو ما يجعل المقاربة أكثر قدرة على تقديم تفسير لاحق محتمل بأكثر من الحدس أو التنبؤ.

كما يفتقر الكتاب إلى نموذج سببي واضح يحدِّد العلاقة بين الشخصية والدافع والفرصة والسياق المؤسسي. فالأيديولوجيا تظهر أحياناً سبباً مباشراً وأحياناً غطاءً لحاجات نفسية، بينما يعمل المال في بعض الحالات دافعاً وفي حالات أخرى أداةً لتعويض الإحباط أو تحقيق المكانة. ولا يمثِّل هذا التعدد مشكلة في ذاته، لكن الكتاب لا يحدِّد الشروط التي تجعل عاملاً معيناً حاسماً في حالة وثانوياً في أخرى. لذلك، تبقى تصنيفاته مرنة وقابلة لإعادة توزيع الحالات وتؤدي وظيفة تنظيمية وتفسيرية أكثر مما تقدم نظرية مترابطة قابلة للاختبار.

ويظهر كذلك اختلال بين تحليل الفرد وتحليل المؤسسة، فالشخصية تخضع لفحص واسع يشمل الطفولة والعلاقات

والدوافع وآليات الدفاع، بينما تحضر المؤسسة غالباً بوصفها إطاراً يوفر السرَّ والفرصة. ولا تحظى الثقافة التنظيمية وأساليب التجنيد وتراكم الصلاحيات وسوء الإدارة والتهميش المهني وغياب قنوات الاعتراض بالقدر نفسه من التحليل. كما تبقى الدولة في معظم الكتاب مرجعاً ضمنياً لتعريف الولاء والخيانة دون مساءلة متكافئة لمشروعية ممارساتها أو طبيعة الأسرار التي تطالب بحمايتها.

أما القيمة التطبيقية للمقاربة في مجال الوقاية الأمنية فتبقى محدودة، وذلك لأن المؤشرات التي يناقشها الكتاب، مثل التغيُّر المالي والمهني والعزلة والغضب والأزمات العائلية، واسعة الانتشار ولا تصلح منفردة لتحديد خطر أمني. ويعترف المؤلِّفان بأن التنبؤ اليقيني غير ممكن وأن تقدير المخاطر يتطلَّب الجمع بين مؤشرات متعددة وفهم البيئة التنظيمية. ودون ضوابط دقيقة، قد يؤدي توظيف التحليل النفسي أمنياً إلى توسيع دائرة الاشتباه وربط الاختلاف السياسي أو الأزمات الشخصية بخطر الخيانة دون أساس كافٍ

الإحالات

[1] محلل استخبارات مدني سابق في البحرية الأمريكية، تجسَّس لصالح "إسرائيل" وسرَّب إليها معلومات سرية، وحُكم عليه بالسجن المؤبد في العام 1987 وأفرج عنه سنة 2015.

[2] ناشط "إسرائيلي" يساري مناهض للصهيونية، أُدين سنة 1973 بالتجسس لصالح سورية والانتماء إلى شبكة يهودية عربية مرتبطة بمنظمة التحرير الفلسطينية، وحُكم عليه بالسجن 17 عاماً قبل الإفراج عنه في العام 1985. ويضع الكتاب انخراطه في المقاومة الفلسطينية ضمن مفهوم الخيانة، انطلاقاً من انتقال ولائه من الدولة "الإسرائيلية" إلى القضية الفلسطينية التي تبنَّاها.

[3] محللة استخبارات أمريكية سابقة في وكالة استخبارات الدفاع، تجسَّست لصالح كوبا لمدة 17 عاماً، وحُكم عليها بالسجن 25 عاماً قبل الإفراج عنها عام 2023.

[4] عالم أوبئة تجسَّس لصالح الاتحاد السوفيتي ونقل إليه معلومات سرِّية عن الأنشطة البيولوجية والكيميائية "الإسرائيلية"، وحُكم عليه بالسجن 20 عاماً.

[5] فيزيائي نووي ألماني بريطاني نقل أسراراً نووية إلى الاتحاد السوفييتي عن تطوير القنبلة الذرية، وأُدين بالتجسُّس عام 1950 وحُكم عليه من قبل محكمة الجنايات المركزية البريطانية بالسجن 14 عاماً قبل الإفراج عنه في العام 1959.

[6] أفري إلعاد، واسمه الأصلي أبراهام زايدنبرغ، ضابط استخبارات "إسرائيلي" تولَّى رئاسة شبكة تجسُّس "إسرائيلية" في مصر، وعمل هناك بهوية ألمانية مزيفة باسم "باول فرانك". ولاحقاً أدانته محكمة "إسرائيلية" بإقامة اتصالات محظورة مع المخابرات المصرية وحكمت عليه بالسجن 12 سنة.

[7] فضيحة لافون أو "عملية سوزانا"، عملية سرِّية "إسرائيلية" فاشلة نُفذت في مصر في العام 1954، واستهدفت منشآت مصرية وأمريكية وبريطانية بعمليات تفجير. كشفت السلطات المصرية الشبكة المنفِّذة، وتحولت القضية إلى أزمة سياسية في "إسرائيل" ارتبطت بوزير الحرب آنذاك (بنحاس لافون) الذي اتُّهم بإصدار أمر تنفيذها.

[8] فيكتور جون أوستروفسكي، من مواليد سنة 1949، ضابط استخبارات "إسرائيلي" سابق عمل في "الموساد" مدة 14 شهراً قبل فصله من الخدمة. وبعد مغادرته الجهاز، ألَّف كتاب **عن طريق الخداع** (1990)، ثم أصدر لاحقاً كتاب **الوجه الآخر للخداع**، وتناول في الكتابين تجربته وعمله داخل "الموساد".

[9] ألدريتش هيزين أميس، ضابط سابق في وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية وتحول إلى عميل مزدوج لصالح الاستخبارات السوفييتية ثم الروسية، حيث سرَّب على مدى سنوات كمّاً واسعاً من المعلومات شديدة الحساسية عن عمليات الوكالة ومصادرها، وأسهمت معلوماته في كشف عدد من العملاء الأمريكيين. تم اعتُقاله في العام 1994 وأُدين بالتجسُّس، وحُكم عليه بالسجن المؤبَّد دون إمكانية الإفراج المشروط.

[10] روبرت فيليب هانسن، عميل سابق في مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي، تجسَّس لصالح الاتحاد السوفييتي ثم روسيا بين العامين 1979-2001. سرَّب نحو ستة آلاف وثيقة سرِّية شملت معلومات عن الاستراتيجية النووية الأمريكية وتقنيات عسكرية، وبرامج مكافحة التجسُّس وكشف عملاء يعملون لمصلحة الولايات المتحدة ونفقَ تنصُّت أسفل السفارة السوفييتية. اعتُقل في العام 2001 بعد عملية مراقبة داخلية، وأقرَّ بالتجسس مقابل أكثر من 1.4 مليون دولار نقداً ومقتنيات ثمينة، فحُكم عليه بالسجن المؤبَّد خمس عشرة مرة دون إمكانية الإفراج المشروط، وبقي في السجن حتى وفاته في سنة 2023.

[11] أوبوس داي، وتعني "عمل الله"، مؤسسة كاثوليكية تأسست في إسبانيا في العام 1928 وتركِّز على ترسيخ الالتزام الديني والقداسة في الحياة اليومية، وتضمُّ علمانيين وكهنة ضمن تنظيم كنسي خاص.

[12] كيم فيلبي، ضابط استخبارات بريطاني وعميل مزدوج للاتحاد السوفييتي، وأبرز أعضاء "كامبريدج الخمسة"، حيث عمل في MI6، وسرَّب معلومات حساسة إلى موسكو، ثم انكشف في سنة 1963، وفرَّ إلى الاتحاد السوفييتي حيث عاش حتى وفاته في سنة 1988.

[13] غاي بورغس، دبلوماسي بريطاني وعميل سوفييتي وعضو في شبكة "كامبريدج الخمسة"، حيث جنَّدته الاستخبارات السوفييتية في العام 1935، وعمل لاحقاً في مؤسسات بريطانية عدَّة بينها وزارة الخارجية، قبل أن يفرَّ إلى الاتحاد السوفييتي في العام 1951 برفقة دونالد مكلين، وظلَّ هناك حتى وفاته في سنة 1963.

[14] زئيف أفني، عميل مزدوج يهودي الأصل، جنَّدته الاستخبارات السوفييتية خلال الحرب العالمية الثانية. انتقل إلى "إسرائيل"، وتسلَّل إلى مؤسساتها الحكومية ثم إلى "الموساد"، وعمل دبلوماسياً في عدة عواصم أوروبية، قبل أن يُكشف أمره في العام 1956 ويحكم عليه بالسجن 14 عاماً. وقد أُفرج عنه بعد عشرة أعوام بعفو رئاسي.

[15] يسرائيل بير، مؤرخ ومحلل عسكري "إسرائيلي" خدم في الـ"هاغاناه" ثم في الجيش "الإسرائيلي" برتبة مقدَّم، وعمل لاحقاً في مجال التاريخ العسكري وكُلِّف بإعداد التاريخ الرسمي لحرب 1948. اعتُقل في سنة 1961 بتهمة التجسس لصالح الاتحاد السوفييتي، وأُدين وحُكم عليه بالسجن 15 عاماً، وتوفي في السجن في سنة 1966.

[16] مردخاي فعنونو، فنِّي نووي "إسرائيلي" سابق كشف في العام 1986 معلومات وصوراً عن البرنامج النووي "الإسرائيلي" لصحيفة **صنداي تايمز** البريطانية. استدرجه الموساد إلى إيطاليا، ونقله إلى "إسرائيل". وحُكم عليه بالسجن 18 عاماً، ثم فُرضت عليه قيود على السفر والاتصال بعد الإفراج عنه في العام 2004.

[17] إدوارد سنودن، متعاقد تقني أمريكي سابق، عمل مع وكالة الاستخبارات المركزية ووكالة الأمن القومي، وكشف في العام 2013 وثائق سرِّية عن برامج المراقبة الأمريكية، بينها برنامج "بريسم". وجَّهت إليه الولايات المتحدة تهماً بالتجسُّس وسرقة ممتلكات حكومية، وغادر إلى روسيا بعد تسليم الوثائق لصحفيين في **الغارديان** و**واشنطن بوست**.